الإشاريات الشخصية وحمولاتها الدلالية في خطبة البتراء لزياد بن أبيه -ضمائر المتكلم أنموذجا-

Personal denotations and their semantic loads in the Petra sermon by Ziyad ibn Abih - first person pronouns as an example -

الدكتورة. الساكر مسعودة

قسم اللغة والأدب العربي -جامعة الشهيد حمَّة لخضر-الوادي(الجزائر)

مخبر التداوليات وتحليل الخطاب، جامعة الوادي.

saker-messaouda@univ-eloued.dz

تاريخ الإيداع: 2024/04/01	تاريخ القبول: 2025/03/04	تاريخ النشر: 2025/03/15

ملخص:

يقوم العلم الذي يهتم بالإنجاز الحقيقي للغة، أو ما يُعرف بالتداولية، على مجموعة من المبادئ، يتمثل أهمها في: الاستلزام الحواري، الافتراض المسبق، أفعال الكلام، الإشاريات، هذه الأخيرة التي تُعد علامات لسانية دالة على معانٍ مقصودة، يُحددها السياق اللغوي الذي أُنتجت فيه، يعتمدها منتج اللغة من أجل التعبير عن مقاصده التبليغية، ومثالها خطبة البتراء، التي اعتمد فيها بانيها (زياد بن أبيه) على إشاريات تُحيل إليه بصفته منتجا للخطاب، حمَّلها دلالات مقصدية متنوعة بتنوعها.

إذن: هل أسهمت الإشاريات الشخصية الخاصة بالمتكلم في بناء خطبة البتراء؟ وهل كشفت عن دلالات الخطيب (زياد بن أبيه) المقصودة؟

الكلمات المفتاحية: التداولية؛ الإشاريات؛ الخطابة؛ الحمولة الدلالية؛ الضمائر الإشارية الشخصية؛ المقاصد **التبليغية**.

Abstract;

The science that is concerned with the true achievement of language, or what is known as pragmatics, is based on a set of principles, the most important of which are: dialogical imperative, presupposition, speech acts, and deictic signs, the latter of which are considered linguistic signs indicating intended meanings, determined by the linguistic context in which they were produced. The producer of the language adopts it in order to express his communicative purposes, an example of which is the Petra sermon, in which its creator (Ziyad ibn Abih) relied on signs that were referred to him as a product of the speech, and carried various intended meanings in their diversity.

So: What is meant by indicatives, what are their types, and what are their pragmatic dimensions?

How did the speaker's personal cues contribute to building the sermon and achieving communication? Did these indications reveal the intended meanings of the preacher (Ziyad ibn Abih)?

***key words**: Pragmatics; Indicative; public speaking; semantic load; Personal demonstrative pronouns; Reporting purposes*

1-المقدمة:

تعدُّ التداولية العلم الذي يركز على الإنجاز الحقيقي للغة؛ بمعنى أنها لا تهتم بالبناء اللغوي (الصوتي والصرفي والنحوي والدلالي) منعزلا عن سياق وُروده، من عناصر الإنتاج (المُرْسِل) والتلقي (المُرْسَل إليه)، وما يُحيط بهما من ظروف، ولعل هذا ما أكده (مسعود صحراوي) بقوله:" التداولية مذهب لساني يدرس علاقة النشاط اللغوي بمستعمليه، وطُرق وكيفيات استخدام العلامات اللغوية بنجاح، والسياقات والطبقات المقامية المختلفة، التي يُنجز ضمنها الخطاب، والبحث عن العوامل التي تجعل من الخطاب رسالة تواصلية واضحة وناجحة، والبحث في أسباب الفشل في التواصل باللغات الطبيعية"[1]؛ ذلك أن اللغة في أصلها تلفظ مخصوص، يتوجه به منتج اللغة إلى متلقٍ مخصوص، في سياق تفاعلي؛ قصد إحداث أثر مقصود؛ ولهذا فهي تهتم بدراسة" اللغة في الاستعمال، أو في التواصل؛ ذلك أن صناعة المعنى

تتمظهر في تداول اللغة بين المتكلم والسامع في سياق محدد (مادي، اجتماعي، لغوي) وصولا إلى المعنى الكامن"[2] ، ولهذا نجدها -التداولية- تهتم بعدة مفاهيم لدراسة الأشكال اللغوية، منها الإشاريات، موضوع ورقتنا البحثية.

فما المقصود بالإشاريات، وما هي أنواعها، وفيم تتمثل أبعادها التداولية؟

2- الإشاريات:

تمثل الإشاريات أهم المباحث التي ترتكز عليها التداولية، لدلالاتها الكامنة في الخطابات المُنْجَزَة، إنها "الصيغة اللغوية التي يتم بها التأشير باللغة"[3]، وبهذا فهي تمثل علامات لسانية دالة على معانٍ مقصودة، يُحددها السياق اللغوي الذي أُنتجت فيه، ذلك أنها " خالية من أي معنى في ذاتها"[4] ولعل هذا ما أكدّه (محمود أحمد نحلة) عند حديثه عن علاقة الإشاريات بالسياق، في قوله: "إن هناك كلمات وتعبيرات تعتمد اعتمادا تاما على السياق الذي تُستخدم فيه، ولا نستطيع إنتاجها أو تفسيرها بمعزل عنه"[5].

ولما كان معناها غير ظاهر؛ كان لزاما على متلقيها ألا يقف عند استنباط دلالتها على بنيتها في درجة الصفر (البنية السطحية)؛ وإنما يُجري سلسلة التأويلات؛ حتى يصل إلى معانيها الكامنة (البنية التحتية)، وهذا بوصفها -الإشاريات- "الجانب الآخر للدلالة، الذي يتحقق منه معانٍ كثيرة، تقوم على ترجمة ما يمكن أن نسميه (الاقتصاد اللغوي)"[6]

ويُمثَّلُ للإشاريات بالضمائر، والأسماء الموصول، وأسماء الإشارة، وظروف الزمان والمكان، وقد عُرفت عند العرب باسم المبهمات، التي خصَّها (السهيلي) " بما تضمنه كتاب الله العزيز من ذكر من لم يُسَمِّه الله فيه باسمه العَلَم، من نبي، أو وليّ، أو غيرهما، آدمي، أو مَلَك، أو بلد، أو كوكب، أو شجر، أو حيوان له اسم عَلَم"[7]

3-أنواع الإشاريات: قسّمها جل الباحثين في ميدان التداوليات إلى خمسة أنواع، يتمثل أهمها في الآتي:

3-1- **الإشاريات الشخصية**: علامات لغوية، تتشكل على مستوى البنية الظاهرة للخطابات بدلالة أولية، تؤشر إلى معناها الحقيقي على مستوى البنية التحتية، تهتم بالجانب الشخصي، الذي يقوم عليه الخطاب، هذا الأخير الذي يُنجز بين طرفين أساسيين، هما: باني الخطاب (المتكلم) ومتلقيه (المُخاطَب أو الغائب)

بمعنى أنها تختص بالضمائر البارزة (المتصلة والمنفصلة) والمستترة، والأسماء الموصولة؛ أي:[8]

- **ضمائر المتكلم**: التي يهدف من خلالها المتكلم إلى التعبير عن هذه الذات،

- **ضمائر المخاطَب**: لا تُحيل إلى فرد بعينه، وإنما تتحدد دلالته من خلال السياق الكلامي.

- **ضمير الغائب**: هذا النوع من الضمائر لا دلالة لها، لأنها لا تقترن بسياق كلامي محدد، وقد لا يكون مشاركا بشكل مباشر، إلا أن له أثرا في مجريات الخطاب.

-**النداء:** لما كان النداء مخصصا لجماعة من المخاطبين، فلا يكون إلا للحاضر، ولا يجوز نداء المتكلم ولا الغائب؛ ألحقه النحاة بالإشاريات الشخصية، الدالة على المخاطَب.

3-2- الإشاريات الزمانية:

إشارات لغوية تدل على زمن محدد يُعينه السياق وفقا لزمن التلفظ، ولا يتمكن المتلقي من استيعابه إلا بمعرفته لهذا الزمن، هذا الأخير الذي قد يكون كونيا يُشير إلى: (الأيام، والأشهر والسنين)، أو يكون نحويا يتضح معناه من الكلمة في شكلها التركيبي.[9]

3-3- الإشاريات المكانية :عبارة عن علامات لسانية، تُشير إلى أماكن، مثل: (هنا وهناك)، والتي ترتبط معرفتها بمعرفة ما تُشير إليه بالقياس إلى مركز الإشارة إلى ذلك المكان، فهي تعتمد على السياق المادي المباشر، الذي قيلت فيه

3-4-الإشاريات الاجتماعية: ملفوظات تعبر عن العلاقة الاجتماعية القائمة بين عناصر العملية التواصلية (المتكلم والمتلقي)، والتي قد تكون رسمية أو غير رسمية[10].

4- الخطابة:

من بين الخطابات التي تَستثمر الإشاريات، وبخاصة المتعلقة بالمتكلم؛ للتعبير عن مقاصد خطابية ذات أبعاد تداولية، (الخطابة) التي تُعدُّ فنا من الفنون الأدبية، يسعى من خلالها الخطيب التأثير في المتلقين، ومحاولة إقناعهم بتغيير وجهة النظر تجاه القضية المطروحة، والتي عُرِّفت بأنَّها "مجموع القوانين يُقتدر بها على الإقناع الممكن في أي موضوع يُراد، والإقناع حمل السامع على التسليم بصحة المقول وصواب الفعل أو الترك"[11]، وقد ازدهر هذا النوع من الأساليب التواصلية، ووصل إلى أوّجه في العصر الأموي؛ نظرا

للتصدعات السياسية الخطيرة التي شهدها، والفتن بأنواعها التي شاعت فيه؛ إذْ وجدها الخلفاء والولاة الوسيلة الأساسية لتأسيس سياساتهم، وردع الفساد والمفسدين.

5- خطبة البتراء: من بين الخطب التي قامت على الترهيب والوعيد، خطبة "البتراء" لزياد بن أبيه".

ففي الخامس والأربعين للهجرة، نصَّبَ "معاوية بن أبي سفيان" "زياد ابن أبيه" واليًا على البصرة، ملجأ المتمردين على الخلافة الأمويّة، وبؤرة الفساد السياسي والانحلال الأخلاقي، ولهذا كان لابد من تطهيرها، والبحث في أمنها واستقرارها، الذي لا يتأتى إلا بالشدة والعنف[12].

وعند وصول زياد إلى البصرة صعد المنبر، وألقى خطبته المعروفة بالبتراء، التي حاد فيها عن البناء المعتاد للخطب، والذي يتشكل من (مقدمة، فيها تتم البسملة والحمدلة والصلاة على النبي المصطفى- وعرض- وخاتمة) لكن زياد صاحب الفصاحة العالية، والسياسة المُحنكة، والعبقرية الفذة؛ بتر المقدمة من خطبته؛ ولهذا سُميت (بالبتراء)؛ لأنه لا يريد أن يطمئن العصاة، بل يرهبهم ويزرع الخوف في قلوبهم؛ إذْ بناها على ثلاث عتبات:

- بدأها بالهجاء الحاد، وازدراء أهل البصرة؛ لانتشار الآفات الأخلاقية والابتعاد عن تعاليم الدين الإسلامي، وعدم مجابهة الفجور والمعصية.

- بعدها بدأ بالكشف عن استراتيجيته السياسية الردعية، وقوانينه التأسيسية العقابية، التي سيحكم بها أهل البصرة؛ لدحض الفساد فيها، ونشر الأمن والاستقرار، وإخضاعها للسلطة الأموية.

- واختتمها بالقسم والتحذير من عقوباته وقصاصاته، معتمدا أسلوب النصح والإرشاد.

6- الإشاريات الشخصية الخاصة بالمتكلم في خطبة البتراء:

اعتمد فيها خطيبنا استراتيجية توجيهية مائزة، تُنبئ عن قدرته اللغوية والتبليغية، ضمّنها مجموعة من الآليات الإقناعية، منها الإشاريات الخاصة به بوصفه خطيبا (ضمائر المتكلم)، والتي تشبَّعت بحمولات دلالية تأثيرية، تراءت كالآتي:

بداية بقول الخطيب: **"حَرَامٌ عَلَيَّ الطعامُ والشرابُ حتى أُسَوِّيَها بالأرضِ هَدْمًا وإحراقًا"**[13]، أين وردت العلامات اللغوية الضميرية الإشارية في موضعين مختلفين، وبحالتين متباينتين:

أولا: وردت ضميرا متصلا (ياء المتكلم) بحرف الجر (على: عليَّ) الذي عمل على خفضه وإلزامه بالتنفيذ، والتقيُّد بالشروط الموضوعة، وهذا الوصل (يا المتكلم) وحرف الجر، لم يكن اعتباطيا عشوائيا، وإنما غائيا، جاء ليكشف مقصدية بانيه (الخطيب)؛ ذلك أن (ياء المتكلم) تُحيل إلى شخص (زياد بن أبيه)، وحرف الجر (على) الذي اتصلت به -ياء المتكلم- تلزمه بالتقيد والتنفيذ؛ فهو الراعي والمسؤول تجاه الرعية، هذه الرعية (أهل البصرة) التي حادت عن الطريق الذي شرَّعه الدين الإسلامي؛ إذ فشا الفساد والظلم.

لكن بماذا تلزمه؟

تلزمه بتنفيذ القسم الذي قطعه؛ ليؤكد محتواه، ويثبت في ذهن متلقيه (أهل البصرة) عزمه على تطهير البلاد من الفجور والفسوق، فلا يدع له مجالا للشك في التراجع، فهو الشريف ذو القدر العالي، المتبع لتعاليم دين الله تعالى، يقول سيبويه: "اعلم أن القسم توكيد لكلامك"[14]

ثانيا: وُرود الضمير الإشاري مستترا بعد الفعل (أُسَوّي) أين حلَّ محل الفاعل، الذي يصدر منه الفعل (مثَّله زياد بن أبيه) فهو الفاعل للحدث (حدث التسوية، وتقويم الاعوجاج، وإصلاح حال المؤمنين)، وارتباط الفعل بالفاعل يؤكد قدرة الفاعل (زياد بن أبيه) على القيام به، والذي يؤكد هذه القدرة ويثبتها، السياق اللغوي الذي ورد فيه الضمير الإشاري الخاص بالمتكلم، القائم على فعلين إنجازيين إقناعيين، هما، <u>القسم</u>: فهو الرجل المؤمن التقي، الذي إذا أقسم أنجز، <u>وجملة الشرط وجوابه</u>: الآلية الإقناعية التي تعمل على الربط بين فعلين إنجازيين اثنين؛ إذ لا يتحقق إحداهما إلا بتحقق الآخر، والمعلوم أنَّ القسم يتعلق ب "ربط النفس بالامتناع عن الشَّيء أو الإقدام عليه"[15]

والملاحظ أن الضمير الإشاري المستتر هنا، تقديره (أنا: أنا زياد بن أبيه) والأنا هنا التي ارتبطت بالفعل، تكشف وجهة نظر الخطيب لنفسه، وقدرته على التنفيذ والقيام بالفعل (إصلاح حال المؤمنين) والتعامل مع رعيته (أهل البصرة) والسيطرة عليهم.

وفي فقرته الثانية من خطبته، يذهب الخطيب إلى عرض استراتيجيته السياسية، بكونه حاكما جديدا للمنطقة، والمسؤول عن إصلاح المجتمع البصري المنحل سياسيا وأخلاقيا؛ وذلك بردعهم وتخويفهم، بقوله وبنبرة تهديد: **(إنِّي رأيتَ آخرَ هذا الأمرِ لا يَصْلُحُ إلاَّ بما صَلُحَ به أوَّلُه: لِيْنٌ في غيرِ ضَعْفٍ، وشِدَّةٌ في غيرِ عُنْفٍ. و إنِّي أقسمُ بالله لآخُذَنَّ الوَلِيَّ بالمُوْلَى، والمقيمَ بالظَّاعنِ، والمقبلَ بالمدبرِ، والمطيعَ بالعاصِي، والصحيحَ منكم في نفسِه بالسقيمِ)**[16]، ولتأكيد أطروحته المتمثلة في الحل المناسب للوضع الواقع، اعتمد

(زياد بن أبيه) على ضميرين إشاريين، يُحيلان إليه (ياء المتكلم) التي جاءت اسما منصوبا للحرف الناسخ (إنَّ)، الدال على توكيد المعنى، وتقويته في ذهن المتلقي؛ حتى لا يُنكره، وإفادته أن (زياد) عالِم بالحال الواقع، وأنه استقر على الحل الذي يراه مناسبا؛ بمعنى أن قراره ليس فيه تجوّز، ولعل هذا ما أكَّده (السامرائي)، في معرض حديثه عن دور التوكيد، إذ يقول: "التوكيد يفيد تقوية المؤكد، وتمكينه في ذهن السامع وقلبه"[17]

ويرد فيه الضمير الإشاري (تاء الفاعل: رأيتُ) (أنا الذي رأيت، لا غيري) فهو المسؤول عن هذه القرارات التي سيسُنُها، ويُطبِقها، والتي يراها الحل الأنسب للوضع؛ فالرؤية هنا رؤية بعين العاقل، وهذا ما يؤدي الثبات على الرأي المتوصل إليه، واستقراره في ذهن مَنْ الخطاب موجه إليهم (أهل البصرة).

بمعنى أن الضمائر الإشارية الموظفة (ياء المتكلم وتاء الفاعل)، التي تُحيل إلى (زياد بن أبيه)، جاءت لتؤكد أنه لامس مظاهر الانحلال والفساد بنفسه، وأنه المقرر الوحيد للحل الأنسب؛ للقضاء على هذا التمرد ودحضه، فهو لا يليق ببلاد الإسلام والمسلمين، وبعدها صرَّح بالقانون السياسي المختار، الملائم لهذا الظرف.

ويواصل بنبرة تحدٍ، تأكيده لقضيته المطروحة (إصلاح حال المؤمنين في البصرة، التي انتشر فيها الوباء الخلقي) ببناء لغوي يقوم على ثلاثة ضمائر إشارية، هي: (ياء المتكلم، الضميران المستتران) ضمن سياق لساني، يحوي أربعة مؤكدات: (إنَّ- والقسم- واللام- ونون التوكيد) في قوله: "**و إِنِّي أقسمُ بالله لآخُذَنَّ الوَلِيَّ بالمُوْلَى، والمقيمَ بالظَّاعنِ، والمقبلَ بالمدبرِ، والمطيعَ بالعاصِي، والصحيحَ منكم في نفسِه بالسقيمِ**"

إن توظيف هذه الضمائر الإشارية، داخل نسق لغوي تأكيدي، لم يكن اعتباطيا، وإنما مقصودا؛ إذ قامت بإنجاز أغراض دلالية، عملت على توصيل مقاصد الخطيب، وغاياته الإقناعية.

فياء المتكلم المتصلة بأن التوكيد (وإنّي)، عمل من خلالها المُحال إليه (زياد بن أبيه) على تأكيد قضيته المطروحة في ذهن متلقيه (أهل البصرة، الذين تعاونوا على الإثم والعدوان)، مدعما إياها بالضمير الوارد بعد فعل القسم (أقسم أنا) ودلالته إجبارية التنفيذ، وإزالة شك التراجع عن القرار، وإبعاد الإنكار من قبل المتلقين، وبروز (زياد بن أبيه) بضمير إشاري مستتر بعد القسم، دلالة على خجله من الله سبحانه وتعالى، مما حدث في بلاد الإسلام والمسلمين، من هتك لمبادئ الشريعة الإسلامية، وفي حضرة رُعاة مسلمين أمثال (زياد بن أبيه)، شريعتهم الدين الإسلامي، وإزاء هذا الوضع المُخل يشعر زياد -وبحكم أنه راع- أنه المسؤول أمام الله جلَّ وعلا بالإصلاح ودحض الفساد، وبالتالي يُلزم نفسه على إصلاح وضع الرعية،

بترهيبهم وتخويفهم، فالوضع خطير، والتثبيت في ذهنهم أنه قرار لا رجعة فيه؛ باعتماده مؤكدات متنوعة، يقول (ابن مالك) في شأن الضمير المستتر "هو ضمير استُغني بمعناه عن لفظه"[18]

ولما كان الوضع متأزما، ونار الفتنة مشتعلة، عاد الضمير الإشاري المستتر (أنا: زياد بن أبيه) إلى تأكيد التهديد والوعيد، وتقرير الاستعداد التام لعقاب الظالم ب (اللام ونون التوكيد) فالضمير الإشاري المستتر هنا (لآخذن أنا) دال على تحمل المسؤولية، ولا بروز إلا بعد الإصلاح وتقويم الاعوجاج المنتشر بين أفراد أهل البصرة، فعلى قدر انتشار الآفات الأخلاقية والسياسية، واشتعال نار الفتنة؛ تكون قوة رد الفعل الإخمادية.

فزياد بن أبيه هنا يكون قد انتهج سياسة دستورية قمعية اخضاعية جديدة، لم يكن للمسلم عهد بها من قبل، فأول ما ظهرت، ظهرت مع زياد عند توليه البصرة، تقوم على معاقبة المذنب ومن حوله، فهو يُعاقب الولي بالمولى، والمقيم بالظاعن.

لكن متى تنتهي هذه العقوبات المطبقة على من انتهج الفساد والتمرد في بلاد الإسلام (البصرة)؟

هنا يظهر الضمير الإشاري (ياء المتكلم)، الذي يعود على شخص الحاكم الجديد (زياد بن أبيه)، مبرزا متى تنتهي هذه العقوبات؛ إذْ اتصل بحرف الجر اللام (لي) الذي يُفيد الاختصاص (يختص بالمسؤول: زياد)؛ بمعنى أن هذه العقوبات لا تتوقف حتى يتوقف هذا الانحلال والتمرد، ويستقيم الأمر والاعوجاج المتفشي، كما يُريد هو (زياد)؛ بصفته الحاكم والمسؤول، وفقا لما وضعه من شروط ومقاييس؛ وذلك في قوله: "**و إنّي أقسمُ بالله لآخُذَنَّ الوَلِيَّ بالمُوْلَى .... حتى تستقيمَ لي قناتُكم**"

وتتواصل الأفعال الإنجازية للإشاريات، التي تُحيل إلى باني الخطاب (زياد بن أبيه)، كاشفة الدلالات التحتية لمقاصده؛ إذْ اتصل (ياء المتكلم) بحرف الجر (على: عليَّ) معلنة جر الكذب إلى الحاكم الجديد، والاتيان به، بمعنى إذا أتيتم بالكذب، وتظاهرتم بالصدق، وحلَّ العصيان، كان الضمير الإشاري (ياء المتكلم) المتصل بالاسم (معصية: معصيتي) بالمرصاد لهذا الوضع، مبرزا الحيازة والملكية، معلنا وبلغة تحدٍ على وحدانية الحل، والمتمثل في تطبيق السُنن الجديدة المفروضة، قائلا في هذا:" **فإذا تَعَلَّقتم عَلَيَّ بِكَذْبَةٍ فقد حَلَّتْ لكم معصيتي**"

ومن الضمائر الإشارية (أنا، وياء وتاء المتكلم) المفرد، إلى الضمير الإشاري الدال على الجمع (نا المتكلمين)، الذي تجلى في تراكيب لسانية، مُعبرا عن هول الوضع وجسامته (الابتعاد عن تعاليم الدين

الإسلامي)، كاشفا عن كثرة الانحرافات والتجاوزات، التي حلَّت بالبلاد الإسلامية وتعددها، يقول الخطيب زياد في هذا: **"وقد أحدثتم أحداثًا لم تكن وقد أحدثنا لكل ذنبٍ عقوبةً"** إنها النتيجة التي وصل إليها الوضع في البلاد، والتي استلزمت من الراعي المسؤول (زياد) اختلاق جزاءات تأديبية جديدة بجدتها، متنوعة بتنوعها، تُناسبها شدة وصلابة.

أظهرها الضمير الإشهاري (نا المتكلمين)، داخل تراكيب شرطية متعددة بتعدد النكبات والمصائب، معلنا توعد أهل البصرة وإنذارهم، وكاشفا عن مجموع الأنظمة والمعايير، التي سيحكم بها الحاكم الجديد الوضع المستجد، والتي تمثلت في الآتي:

_ فَمَن غَرَّقَ قومًا غَرَّقْنَاهُ.

_ ومَن أَحْرَقَ قومًا أَحْرَقْنَاهُ.

_ ومَن نَقَبَ بيتًا نَقَبْنا عن قلبِه.

_ ومَن نَبَشَ قبرًا دَفَنَّاهُ حَيًّا فيه.

إنها مجموع القوانين، التي تمثل التشريع الذي سنَّه الخطيب الفطن (زياد بن أبيه)، بلغة خطابية ردعية، كاشفة عن مقاصده الباطنية، المتمثلة في لجم المتمردين، وقد تجلى خطيبنا في لغته هذه بالضمير الإشاري (نا المتكلمين)، المتصل بالفعل؛ إذْ حلَّ محل الفاعل، المشير إلى قدرته الفاعلية على القيام بالفعل؛ إذْ عمل كمؤشر تحفيزي، أسهم في شد انتباه متلقيه المقصود، وتحذيره من الاستمرار في الإثم العظيم.

والملاحظ هنا الاعتماد المتكرر على الضمير الإشاري (نحن)، الدال على (الأنا المفرد: زياد بن أبيه)، والذي انزاح بدوره عن معناه الحقيقي (الاستعظام: استعظام الذات) إلى معانٍ متعددة، منها: كثرة المعاصي والذنوب المرتكبة.

ومن التجلي بالضمير الإشاري الدال على الجمع (نا المتكلمين)، وبأسلوب نصح وإرشاد وتحذير، وفي قالب شرطي ترهيبي، تعود الإشاريات الدالة على المفرد المتكلم إلى الفعل والتوجيه، والتي ظهرت متنوعة (ياء وتاء المتكلم، والضمير المستتر) مشكّلة علامات لغوية دالة على مقاصد المحال إليه (زياد بن أبيه)، والمتمثلة في استمرارية الكشف عن قوانينه السياسية، يقول في هذا: "**فَكُفُّوا عني أيديَكم وألسنتَكم أَكْفُفْ عنكم يدي ولساني**"؛ إذْ أوحى الضمير الإشاري (ياء المتكلم)، المتصل بحرف الجر (عن) بالمجاوزة والابتعاد، وإلزام الفئة المقصودة بالابتعاد عن الأذية الفعلية والقولية، وإظهار الولاء ونصرة الحُكم؛ حتى يبتعد الضمير الإشاري الفاعل، الذي له سلطة التنفيذ على الرد بالمثل، هذا الضمير الذي اتصل

بالفعل اتصالا مستترا (أَكْفُف)، بالاعتماد على قوته التي تجلت في الضمير الإشاري (ياء المتكلم)، المرتبط بطرائقه (يدي وأذاي)، معلنا قدرته على الرد والبروز، عوض الاستتار؛ إذا لم يتم التنفيذ والتقيُّد بالأوامر، وأن ردّه سيكون عنيفا، يصل إلى درجة القتل لمن يستحق، ولهذا برز الفاعل متصلا بالفعل (ضربتُ عنقَه) وهذا ما عبَّر عنه أسلوب الشرط: (فكلما كان رد فعل الفئة المقصودة؛ كان رد فعل الراعي)، وبهذا يكون الفاعل الخطيب (زياد بن أبيه) قد حقق غايته المقصودة من توظيف إشارياته، والمتمثلة في التأثير وتغيير وجهة النظر السائدة في منطقة البصرة.

بعدها تتحرك إشاريات المتكلم (الأنا)، وبصور متعددة، معبرة عن قضية شخصية خاصة، تتمثل في حال العلاقة القائمة بين المحال إليه (الراعي: زياد بن أبيه) ورعيته (أهل البصرة)؛ إذْ اتصل الضمير الإشاري (ياء المتكلم) بالظرف (بين) واشتغل على الربط بين زياد والرعية، مصرحا على أنه كانت هناك علاقة بينهما، وأنها علاقة عداوة، يقول في هذا:" **وقد كانت بيني وبين أقوامٍ إِحَنٌ**" وإن هذا التصريح العلني، عمل على شد انتباه الرعية (أهل البصرة)، وأثار مخاوفها، وفضولها في معرفة مصيرها: (وماذا بعد؟)، هل هذا الحاكم (المُقرّر والمنفِّذ) سيحكم بعواطفه، ويقوم بقمع العباد وكبتهم؟

وهنا تتجلى الإشاريات الضمائرية الخاصة بالمتكلم، محاورة المتلقي الفزع، مطمئنة إياه، ومجيبة عن أسئلته، (تاء المتكلم) التي اتصلت بالفعل، ومنحت فاعله صلاحية التصرف، والقدرة على القيام بالفعل (جعلتُ)؛ أي تَصْيِّر العلاقة، وتحويلها من حال إلى آخر، تحويلها من السيئة إلى الحسنة والممتازة؛ بمعنى أن الرجل، رجل عادل، وسيحكم بعقله ومنطقه، لا عواطفه، وهذا مُحفز ومطمئن للمتلقي، يعمل على التأثير فيه، واستعطافه؛ وبالتالي تغيير وجهة نظره، بعدوله عن المجارية والمجابهة.

ليأتي تكرار الضمير الإشاري (ياء المتكلم)، مؤكدا نوايا الخطيب في نشر العدل والمساواة، والحُكم باللين والشدة، والتي اتصلت بالاسمين (أذني\ قدمي)، جاءت مجرورة مسيطرة عليها، والتي تؤكد تحكم (زياد بن أبيه) في هذه العواطف، وإخماد نارها، وإحكامه للعقل، يقول في هذا:" **وقد كانت بيني وبين أقوامٍ إِحَنٌ فجعلتَ ذلك دُبَرَ أُذُنِي وتحت قدمي، فمَن كان منكم مُحْسِنًا فليَزْدَدْ إحسانًا، ومَن كان منكم مُسِيئًا فليَنْزِعْ عن إساءَتِه**"

لتظهر الإشاريات في ثوب المؤكد، مقررة توجه صاحبها (زياد بن أبيه)، وسعيِّه نحو نشر السلام، والأمان والعدل والمساواة على أرض البصرة، ومحاولة كسب ثقة متلقيه، وإحراجه بشدة كرمه؛ إذْ اتصل الضمير الإشاري (ياء المتكلم) بحرف التوكيد (إنَّ، إنّي) و(تاء المتكلم) بالفعل (عَلِمَ: عَلِمْتُ)؛ ليُرسخا في ذهن المتلقي المقصود (أهل البصرة) سريرة الحاكم الجديد في منحهم فرصة لإصلاح حالهم، وتقويم اعوجاجهم، والتقيُّد بتعاليم دينهم.

لتأتي بعدها الإشاريات: (ياء المتكلم) و(الضمائر المستترة) المرتبطة بالأفعال، والمانحة للحاكم (زياد) قدرة القيام بالفعل؛ لتثبت بأنه لن يذهب إلى محاسبتهم؛ إذا استمروا في عنادهم؛ حتى يُحاسبوا أنفسهم، يقول في هذا: "**إني لو علمتُ أَنَّ أحدَكم قد قتلَه السُّلُّ مِن بُغْضِي لم أكشفْ له قناعًا، ولم أهتكْ له سِترًا حتى يبديَ لي صفحتَه؛ فإذا فعل ذلك لم أُنَاظِرْهُ**"

وهذه كلها محفزات ودوافع، تدفع متلقي الخطاب إلى الخجل من الوالي؛ لكرمه وعفوه، وبالتالي الولاء له، الذي يؤدي به إلى: "**يبديَ لي صفحتَه**" ليقوم الضمير الإشاري الواقع فاعلا للفعل (أناظر) بدفع المحال إليه (زياد) إلى عدم مناظرته؛ وذلك لأن المتلقي قدَّم للضمير الإشاري (ياء المتكلم) (لي) ولاءه، يقول في هذا: " **إني لو علمتُ أَنَّ أحدَكم ... لم أُنَاظِرْهُ** "

وبأسلوب نصح وإرشاد، يبث فيهم روح المسؤولية، ويدفعهم إلى ضرورة التعاون من أجل إصلاح الحال، والنهوض بالمنطقة، وتطهيرها من النجاسات، فهذه مسؤولية الجميع، ولا يستطيع بمفرده القيام بها، وهذا ما أثبته الضمير الإشاري (ياء المتكلم) المرتبط بحرف الجر (على) في قوله: "**فاستأنفوا أموركم، وأعينوا علي أنفسِكم**"

ليأتي أسلوب النداء (أيُّها الناس)، الذي به يتم طلب الإقبال والحضور وتلبية النداء، وقد يخرج النداء إلى معانٍ مجازية بلاغية، تفهم من سياق الكلام؛ ولهذا كان على المتلقي إبراز ذلك الغرض ودافعه النفسي،[19]؛ إذْ جاء مُنبها أهل البصرة للالتفات إلى ما سيقوله خطيبهم وحاكمهم الجديد، وشد انتباههم إلى مضمون رسالته، التي بُنيَّت على إشاريات متنوعة (بارزة ومستترة) دالة على الجمع، كاشفة عن مقصدية الخطيب (زياد)، وما يُريد ايصاله لمتلقيه (أهل البصرة) وترسيخه في أذهانهم وإقناعهم به.

لكن ما الذي يُريد الإعلان عنه، ولماذا بالضمير الإشاري (نحن)؟

اعتمد الحاكم الجديد (زياد) في توصيل مقاصده على الضمير الإشاري البارز (نا)، الدال على المتكلمين، والمتصل بحرف التوكيد (إنَّ: إنّا)، والفعل (أصبح: أصبحنا)؛ ليحقق غرضه الإقناعي، المتمثل في التأكيد (أنّا) على انتقال الحكم في البصرة (أصبح) من حال إلى آخر، أين استقر بيد الأمويين، الذين سيحكمون البلاد، يقول زياد في هذا: "**إنا أصبحنا لكم ساسة، وعنكم ذادة**"

وتواصل الإشاريات كشف مقاصد الخطيب (زياد) ونواياه، بأن الحكم والسلطة حق مشروع لهم، منحه الله تعالى للأمويين، وقد أدت هذه الإشاريات أدوارا مختلفة، فتارة جسّدت قدرة الفاعلية، والتي دلت على إمكانية التنفيذ، والقيام بالأفعال الموكلة إليهم، بصفتهم سادة على منطقة البصرة (نسوسكم، نذود عنكم)، وقد حقّقها الضمير المستتر، وهذا ليَبيّنَ ما خفي عنهم، وما هو حق مشروع لهم، وتارة أخرى تظهر الإشاريات البارزة، وهي تتصف بالمفعولية، وتحقق وقوع فعل الفاعل عليها، وقوع فعل العطاء من

عند الله سبحانه وتعالى (أعطانا- خوَّلنا)، يقول زياد في هذا: **"نسوسُكم بسلطانِ اللهِ الذي أعطانا، ونذودُ عنكم بفيءِ الله الذي خَوَّلَنا"** وإن توظيف الإشاريات البارزة هنا دلّت على أن الأمر جليٌّ لا غُبار عليه.

ولكسب ثقة المتلقي (أهل البصرة)، وإقناعهم بأن النهوض بالبلاد، وتنظيفها من الفجور والزيغ، ونشر السلم والأمان، يرتبط بالتكاتف بين الطرفين الأساسيين (الحاكم والمحكوم)، فلا سلطة للراعي دون رعية، ولا استقرار وانتظام للرعية دون الراعي، ولتأكيد هذا وترسيخه في ذهنه؛ وظَّف خطيبنا زياد إشاريات خاصة بالمتكلمين، وفي مواضع مختلفة باختلاف دلالاتها التوجيهية، اتصلت تارة بحروف الجر، وأخرى بالأفعال، وثالثا بالأسماء.

ارتبطت بحرف الجر (اللام: لنا)؛ لتدل على التملك، فالطاعة والانصات من حقنا كسادة عليكم في الأمور التي قررناها (نحن) وارتأيناها الأصح (أحببنا)، ومن واجبنا نحوكم (علينا) بصفتنا الحُكام (وُلّينا) العدل والمساواة " **فلنا عليكم السمعُ والطاعةُ فيما أَحْبَبْنا، ولكم علينا العَدْلُ فيما وَلِينا**" وإن هذا العدل المرغوب والمأمول، لا يتحقق إلا بنصائحكم وإرشاداتكم، بصفتكم الأطراف الأساسية في صلاح البلاد، تطمح لمنفعة الجماعة؛ ولهذا كان من حقوقنا عليكم، توجيهاتكم وتصويباتكم، يقول زياد في هذا: "**فاستوجبوا عَدْلَنا وفيئَنا بمناصحتِكم لنا**"

ويواصل استثمار الإشاريات الخاصة بالمتكلم؛ ليثبت حسن نواياه، وعزمه على طي صفحة الماضي، وبناء بداية جديدة، وقد كان هذا الاستثمار للإشاريات بضمير المتكلم (أنا) وبأنواعها، وهذا ما يجعل الخطيب زياد في هذا البناء اللغوي، أساسا وبؤرة السيادة والتصرف والمسؤولية عمن حوله من رعية، والتي كانت كالآتي:

وظَّف (ياء المتكلم) متصلة بحرف التوكيد (إنَّ) مرتين متتاليتين، وعمل على تكرار الفعل (قصَّر) مقرونا بتاء المتكلم البارزة تارة (قصَّرْتُ) وأخرى بالضمير المستتر (أقصِّر).

فالتكرار (تكرار الفعل) وحروف التوكيد، التي اتصلت بها إشاريات المتكلم، عملت كدلائل وآليات إقناعية؛ أدّت إلى شد انتباه المتلقي (أهل البصرة)، وتثبيت أطروحة الخطيب زياد في ذهنه، والمتمثلة في نية الإصلاح، وتأكيد تنفيذ أساسيات الحكم، يقول زياد في هذا: "**واعلموا أني مهما قَصَّرْتُ عنه فلن أُقَصِّرَ عن ثلاثٍ**" إضافة إلى أن هذه الإشاريات قد سبقها فعل أمر (اعلموا)، والدال على وجوب القيام بالأفعال التي سيعرضها زياد.

ففيم تتمثل هذه الأساسيات الثلاث، وكيف عملت الإشاريات على تنفيذها؟

لقد تنوعت الإشاريات المحيلة إلى شخص (زياد: الحاكم)، وتساندت أدوارها التوجيهية في إثبات قدرته على القيام بالأفعال المنتظرة منه، والتي تطلُبها الرعية.

بداية بتاء الفاعل المتصلة بالفعل (لستُ)، واسم الفاعل (محتجبا: الذي يدل على من قام بالفعل: (زياد) في قوله: **"لستُ مُحْتَجِبًا عن طالبِ حاجةٍ منكم ولو أتاني طارقًا بليلٍ"**؛ بمعنى أن تتابع هذه الإشاريات، والتي تُحيل إلى الفاعل (زياد) تؤكد أنه لن يَرُد سائلا مهما كانت الظروف.

كذلك اسم الفاعل (حابسا)، والذي مثَّل علامة لغوية إشارية، دالة على شخص الحاكم (زياد)، وتؤكد على قيامه بفعل منح الحقوق المالية لأصحابها: "**ولا حابِسًا عطاءً ولا رِزْقًا عن إبانه**"

ويتكرر اسم الفاعل مع كلمة (مجمرا)، مُجسدا فعلا إنجازيا إشاريا دالا على فعالية الفاعل (زياد)، وكفاءته في القيام بفعل عدم حجزه الأعوان في أرض الأعداء: "**ولا مجمرا لكم بعثًا**"

وإن هذا التتابع في الإشاريات الخاصة بالمتكلم، تكشف عن إصرار المحال إليه (زياد) على تحسين الوضع وتغييره، وتلطيف الجو بين الراعي والرعية، وكسب ثقتهم، وإن اعتماده ضمير المتكلم المفرد (أنا)؛ يؤكد إحساس زياد بالمسؤولية، وبأنه الملزم الأساسي بالإصلاح.

وبهذا تتكامل العلاقة بين الراعي والرعية، وتتضح استراتيجية سير الحكم، وواجبات وحقوق كل طرف، يقول زياد: "**ومتى يَصْلُحوا تَصْلُحُوا**"

ليأتي بعدها الضمير الإشاري المستتر، الوارد بعد الفعل (أسأل) (أنا زياد)؛ لينزاح على معنى القدرة على القيام بالفعل (أسأل)، ويخرج عن معناه الحقيقي؛ ليعبر عن الدعاء، دعاء الله تعالى بالتوفيق والسداد لشعب البصرة (الراعي والرعية)، يقول الخطيب زياد: "**أسألُ اللهَ أَنْ يُعِين كُلاًّ على كلٍّ**"

والآن وبعدما كشف الخطيب (الحاكم زياد) عن تفاصيل سياسته، التي سيحكم بها مدينة البصرة، أصبح كل طرف (الراعي والرعية) على علم بالواجبات والحقوق التي تحفظ كرامة المسلم، وبها ترتقي أوضاع البلاد؛ لتأتي الفقرة الأخيرة من خطبته السياسية.

لما كان الختام آخر ما يسكن ذهن المتلقي؛ عمد الخطيب زياد في عبارة نهاية خطبته، وبنبرة تهديد ووعيد، وفي سياق القسم والتوكيد بالحرفين: (إنَّ واللام) إلى توظيف الضمير الإشاري (ياء المتكلم)؛ لتقوم

مقام علامات لغوية توجيهية مؤثرة في المتلقي، ومعبرة عن مكنونات بانيها، اتصلت أولا بحرف الجر (اللام: لي)؛ لتثبت دور التملك والحيازة بالنسبة للقائل زياد، وتؤكد أن له حق تطبيق العقوبات القاتلة، على من لم يلتزم بالقوانين، ويسعى إلى خرابها، وزيادة في التدليل، تتصل مرة ثانية -ياء المتكلم- بالاسم المجرور (من صرعاي)، أين احتلت موضع المضاف إليه، الذي عمل كفعل إنجازي، أدى معنى التحذير، وتقييد الحلول؛ بمعنى التأكيد على أنه لا خيار أمام الحاكم (زياد)، فالحل واحد ووحيد، وهو القتل، يقول: "**و ايم اللهِ إنَّ لي فيكم لَصَرْعَى كَثِيرةً فَلْيَحْذَرْكلُّ امرئٍ منكم أن يكونَ مِن صَرْعَاي**"

7- الخاتمة:

- مثَّلت الإشاريات لب المنتج اللغوي؛ إذْ حملت بين طياته مقاصد بانيه الخطابية.

- عملت الإشاريات الشخصية الخاصة بالمتكلم، في خطبة البتراء كعلامات لغوية حاضرة، دلت على معان مقصودة غير ظاهرة.

- استطاع (زياد بن أبيه) في خطبته البتراء أن يُحَمِّل ضمائره الإشارية الخاصة به بصفته الخطيب، طاقات تأثيرية، أحالت إلى دلالات مختلفة.

- تمكن (زياد بن أبيه) في خطبته أن يبني بإشارياته، وبأنواعها المختلفة، علاقة تأثير وتأثر بينه ورعيته.

- الضمائر الإشارية الخاصة بالمتكلم، تحوي بنيتين، بنية سطحية معناها مباشر غير مقصود، وثانية تحتية مبطنة مقصودة.

-هوامش البحث:

[1] مسعود صحراوي، التداولية عند العلماء العرب، دراسة تداولية لظاهرة الأفعال الكلامية في التراث اللساني العربي، دار الطليعة، ط 1، 2005، ص 5.

[2] هاجر مدقن، التحليل التداولي، الأفق والإجراء التطبيقي في الجهود التعريفية العربية، مجلة الأثر، ورقلة، الجزائر، ع7، 2008، ص 88.

[3] الماشطة مجيد، الركابي أمجد، مسرد التداولية، دار الرضوان، ط 1، 2018 م، ص 50.

[4] يول براون، تحليل الخطاب، تر: محمد لطفي الزليطي ومنير التركي، جامعة الملك سعود، 1997، ص 35.

[5] محمود أحمد نحلة، آفاق جديدة في البحث اللغوي المعاصر، دار المعرفة الجامعية، ط1، 2002، ص 15، 16.

[6] ذهبية حمو الحاج، لسانيات التلفظ وتداولية الخطاب، الأمل للطباعة والنشر، 2012 م، ص 109.

[7] السهيلي، التعريف والإعلام، تحق: عبد الله محمد علي النقراط، منشورات كلية الدعوة الإسلامية، ط1، 1401هـ، ص50.

[8] ينظر: تمام حسان، اللغة العربية معناها ومبناها، عالم الكتب، ط5، 1427ه، ص.204

[9] ينظر: جواد ختام، التداولية أصولها واتجاهاتها، كنوز المعرفة، ط1، 1237ه، ص80، 81.

[10] ينظر: محمد أحمد نحلة، آفاق جديدة في البحث اللغوي المعاصر، ص21-25.

[11] على محفوظ، فن الخطابة وإعداد الخطيب، دار الاعتصام، د ط، د ت، ص 13

[12] ينظر: جورج غريب، عصر بني أمية، نماذج نثرية محللة، دار الثقافة، دط، دت، ص19

[13] أحمد زكي صفوت، جمهرة خطب العرب في عصور العربية الزاهرة، العصر الأموي، المكتبة العلمية، ص 1933.

[14] سيبويه، الكتاب، تحق عبد السلام محمد هارون، مكتبة الخانجي، ط3، 1408، ص104.

[15] مصطفى ديب البغا، الواضح في علوم القرآن، دار الكلم الطيب، ط2، 1418ه، ص207.

[16] أحمد زكي صفوت، جمهرة خطب العرب في عصور العربية الزاهرة، العصر الأموي، المكتبة العلمية، ص 1933

[17] السامرائي فاضل صالح، معاني النحو، جامعة بغداد، دط، 1990م، ج4، ص509.

[18] ابن مالك، شرح تسهيل الفوائد، تحق: عبد الرحمن السيد، ومحمد بدوي المختون، هجر للطباعة والنشر والتوزيع والإعلان، ط1، 1410ه، ج1، ص120.

[19] ينظر: القزويني، تلخيص المفتاح، ط1، 1431ه، مكتبة البشرى، ص106